عتاب المسخِّر للمسخَّر له

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ 2007/7/27م

في القرآن الكريم نقرأ فيما نقرأ خطابًا إمتنانيًا استعراضيًا يعرض فيه ربنا تبارك وتعالى بعضًا من آلائه ونعمه، ويعدد بعضًا من أفعاله التي أكرم بها الإنسان، لكن هذا الإنسان تمرد على مولاه الذي أنعم عليه، فأنكر وجحد، وغفل وأعرض، ونسب الأمور إلى غير مالكها، وعظَّم ما لا يستحق التعظيم، والتفت عن الذي بيده مقاليد كل شيء الملك العظيم.

فاخترت أن يكون درس الجمعة هذا قرآنيًا أقرا لكم فيه هذا الخطاب الربَّاني الذي يعاتب فيه مَن سخَّر المسخَّرَ له، ويخاطب فيه المسخِّرُ المسخَّر له، وينبه فيه المسخِّرُ المسخَّر له، ويحفِّز فيه المسخِّرُ المسخَّر له.

لقد جعل الله تبارك وتعالى هذا الإنسان نقطة مركزية بين الموجودات، وجعل منافعها وفوائدها عائدة إليه، ليكون شاكرًا وحامدًا ومطيعًا ومنقادًا لأمر الملك الأوحد الذي سخرها له.

يقول الله تبارك وتعالى وهو يعدد عشرًا من نعمه وأفعاله الكريمة الجليلة العظيمة في سورة النحل، والسورة كلها في الحقيقة تدور حول هذا المعنى، لكنني اقتطعت لكم واخترت بما يتناسب مع الوقت.

يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ، وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ، وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ، هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ، يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ، وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ، أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ،

وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ، إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: 3-22]

فعدّد الله سبحانه وتعالى في هذا النص القرآني نعمًا عشرًا ثم نبّه المخاطب خمسة تنبيهات، فكانت الفوائد من هذا النص خمسة عشرة.

أما أفعاله تبارك وتعالى الجليلة العشرة فقد استعرض فيها مشهد الأرض والسماء، ومشهد النعم التي أوجدها بحكمة وتناسق، وتناغم ليس فيه أي تناقض، بل يؤدي للإنسان خدمة سلوكية، وخدمة نفسية، وخدمة بدنية، وكانت تلك النعم تحف الإنسان من كل جوانبه..

إنها صورة بديعة مرسومة بالبيان القرآني رسمًا عجيبًا، فكأنه يقول للإنسان في هذا النص: ما أوجدتك إلا على أرض هيأتها لك، وأوجدت فيها التوازن لك، وأوجدت لك فيها ما تحتاجه أنت.

إن ما يعيشه العالم اليوم من الاضطراب والأمراض، والآثار التي أخرجت الإنسان عن حالة استقراره في النفس والبدن ما هو إلا لأن الإنسان أراد أن يعبث بهذا الكون.

فلو أن الإنسان بقي يتعامل مع الطبيعة التي خلقها الله له دون محاولات منه أن يغير ويبدل، اتّباعًا للنصيحة الإبليسية: ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: 119]. لبقي بعيدا عن هذا الاضطراب.

كنت أقرأ في نفس السورة قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً﴾

وكنت وقتها أعاني من الحر، وأنتم اليوم تعيشون موجة الحر الشديدة، فقلت: ماذا يقول القرآن في الحر، والقرآن لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وذكر فيها تفصيلاً، فقرأت في كتاب الله تبارك وتعالى جزئية فرعية قادتني إلى هذا الموضوع الكلي، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: 81]

فقدّم إلى الإنسان من خلال هذه الجزئية حلولاً يستطيع من خلالها أن يتكيف مع الحر والبرد، لكن الإنسان أراد أن يصنع شيئًا برأيه.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ يقول علماء الكون: إن اللباس حين يصنع من القطن أو الكتان يقي بدن الإنسان الحر.

واقرأ جمع القرآن لهذه العناصر، (الظلال، الأكنان، السرابيل).

فبالعناصر الثلاثة هذه لن يشعر الإنسان بالحر:

- الظلال تخفف الحرَّ لأنها تحجب عن الشمس.
- والأكنان: جمع كِنّ وهو الواقي أو العازل (بلغة العصر).
- والسرابيل: وهي الثياب المصنوعة من النبات.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة الحارة جدًا يصعد إلى غار حراء، وغار حراء نموذج من نماذج الأكنان، فكان هذا الغار يهيئ الظل الدائم والهواء الذي يعبر من الجانب إلى الجانب الآخر، والتعرج الذي تنكسر معه الأمواج الحرارية، وهذا ما فعله أجدادنا حينما بنوا بيوتهم في المدينة القديمة، فكان الهواء الساخن يمر بالأزقة المتعرجة ويتبرد.

وكانوا في الماضي يلبسون اللباس المتناسب مع الفصل السنوي، واستخرجنا اليوم من الأرض البترول الذي خلقه الله تبارك وتعالى ليكون نارًا تُحرق، وقلنا للإنسان البسه.

إنها العبثية التي يتوهم الإنسان فيها أنه الأقدر، وأنه يستطيع أن يسيِّر الكون كما يشاء، لكن الله سبحانه وتعالى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

واخترعنا المخترعات، وبدأت أبخرة المعامل والغازات تتصاعد حتى ارتفعت حرارة الغلاف الجوي بما كسبت أيدي الناس ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[الروم: 41].

والله سبحانه وتعالى لا يضع الإنسان إلا في المكان المناسب، ثم يهديه إلى المناسب، لكن مصيبة الإنسان تكمن في وهمه أنه يستطيع أن يغير بعيدا عن هدي ربه.

الجبال اليوم تخرق وتجعل فيها الإنفاق وقد قرأت دراسات كثيرة تقول إن هذا الفعل سيكون مسببا في المستقبل القريب الزلازل الكثيرة، لأن الأوزان التي وضعها الله تعالى على كتل الأرض، وضعها بحكمة منه لا بعبثية، وقد قدم الله إلى الإنسان هذه الأرض وقال له كن أمينًا عليها، وتعامل معها ففيها كل شيء ينفعك، لكن الإنسان خرّب...

وأعود إلى الخطاب الرباني الذي هو موضوع اليوم.

فبدأ أول ما بدأ بالفعل الجليل الكبير الذي هو **خلق الكون** فقال سبحانه: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾

ويشير بذلك إلى خلق الملك والملكوت، أو خلق العالم اللطيف والعالم الكثيف، والكون كله ملك وملكوت، أو مادة وروح، حس ومعنى.

لكنه سبحانه اختصر بكلمة واحد حكمته في الكون حين قال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالحكمة لا بالباطل والعبثية، فالكون كله مخلوق بالحكمة، وهو أول فعل ذكره، وأول نعمة عدَّها في خطابه، يقول: خلقت كوني هذا بسمواته وأرضه وحسه ومعناه بالحكمة لا بالعبثية.

﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فهو سبحانه لا يوصف بما يوصف به سواه من ممن تنسبون إليه التأثير والفعل فتشركون معه سبحانه غيره.

ثم أتى بالفعل الثاني وهو **خلق الإنسان**، فقال : ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ .

وانظر أيها الإنسان حين يرتِّب الله سبحانه وتعالى ذكر أفعاله فيذكرك في أول القائمة.

فبعد أن ذكر خلق الكون بالحكمة قال: خلقتك أيها الإنسان، وهذا قبل ذكره لخلق الجبال والبحـــار، ومـــا في السموات والأرض.

قال أولا: خلقت الإنسان ليدلنا على مكانته، ومنـــزلته التي غفلنا عنها، فنـــزل كثير منا إلى رتبة البهائم الـــتي تأكل وتشرب، وتتمتع.

غفلنا عن سر وجودنا ومكانتنا التي أعطانا الله سبحانه وتعالى إياها لنكون عباده..

سخر لنا كل شيء لنكون مسخرين له وحده، ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي من مويهة صـــغيرة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ يخاصم ربه، ويتمرد على هدايته التي أنزلها إليه، في كل مجالات حياته.

قال له: هذه هديتي إليك, ولن تكون مُسترشِدًا إلا بها, ولن تكون مهتديًا إلا بها.

فتمرَّد هذا الإنسان, وقال: لا أريد الدين, بل أريد وضع البشر, أريد العَلمانية المُلحِدة, أريد وأريد..!!

وبدأ هذا الإنسان يعيث فسادًا..

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ يخاصم الله المَلِك الذي يُسيِّر الكون, ويهديه إلى منافعه.

قلت في مناسبة زفاف منذ مدة قريبة: إن العالم الإسلامي بدأ يتذكَّر الهُوية, كما أنَّ العالم الإنساني بدأ يعـــود إلى الماهية.

أما تذكُّر العالم الإسلامي للهوية, فنموذجه ما نشهده اليوم في بلاد كثيرة كتركية, فقد حاولت العلمانية أن تُنسي الإنسان المسلم فيها هويته, لكن المسلم تذكَّر أخيرا هويته, وسيتذكر المسلمون في العالم هويتـــهم, إن عـــاجلاً وإن آجلاً, لأنها هي الهوية الأعظم في الأرض.

ويتذكر العالم البشري الماهية الإنسانية الموصوفة بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين: 4]

ونجد أعدادًا كثيرة من البشر في العالم تبحث عن الحقيقة وتدخل في الإسلام رغبة في العودة إلى حقيقة إنســـانيتها, وماهيتها الأصيلة في رتبتها الإنسانية, بعد أن شعرت أنها قد تحولت إما إلى آلة ميكانيكية حركية, وإما إلى عابث لاهٍ عن مقاصد الكون.

ثم ذكر بعد ذلك **خلق العالَم الحيواني**, ولّما كان العالَم الحيواني مُتماثلاً مع الإنسان في الهيئة أو يقترب منه, مـــع فارق تشريف الإنسان بمعناه؛ ذكر في التعداد العالَم الحيواني المُسخَّر للإنسان بعد ذكره للإنسان مباشرة, فقال:

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾

وهكذا يُجْمل القرآن حين يقول: ﴿وَمَنَافِعُ﴾ فابحثوا عن هذه المنافع.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ غذاؤكم الذي تتقوى به أبدانكم.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ وهو عنصر من العناصر النفسية التي يرتاح الإنسان فيها, حينما ينظر إلى العالَم الحيواني بنظرة جمالية, ليأخذ في نفسه من ذلك كثيرًا من الراحة.

ثم ذكر بعد ذلك توظيفًا للنقل, لكنه في ذلك كان معجزًا, فذكر بعد ذلك مع الحيوانات **مركوبات مجهولة**, ومع أنها ليست من العالَم الحيواني, لكن القرآن مُعجِز في إيراداته, حتى لا يأتي سخيفٌ جاهل فيقول: انظروا إلى القـــرآن يقول: إن الأنعام تحمل أثقالكم, ونحن في زمن الطائرات.. و المركبات السريعة..!

إنَّ القرآن يتحدّى دائمًا في خطابه, ويقول للإنسان: أنا أخاطبك في زمن ركوبك البغال, وفي زمـــن ركوبـــك المركوبات التي لا يعرفها من كان يركب البغال, قال تعالى:

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ , وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ وهي غير الإبل أو الجِمال, فالجِمال تندرج في الأنعام, لكن هذه مُكمِّلة في الوظيفة من العالم الحيـــواني, ولا تدخل في الأنعام.

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾

فكان الخطاب مُعجِزًا ومُتحدِّيًا: سأخلق الطائرة.. سأخلق مركبات يعرفها في المستقبل من يعرفها.. لكن أنا الذي أهدي إلى ذلك.. وأنا الذي أُعلِّم: ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق: 5]

لا تتوهم أنك إذا اهتديت إلى منفعة, فإنك بهذا قد خرجت على قوانين الله!!

لا.. إن الذي هداك إلى هذه المنفعة إنما هو الله.

والذي هداك إلى تركيب ذلك المصنوع الجديد الذي صنعته هو الله.

﴿ وَيَخْلُقُ ﴾ لأنه وحده هو الذي يخلق.

﴿ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ فأجمل في خطاب يتحدَّى به

﴿ وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ أي هو الذي سيهدي, وأكَّد بهذا أن ما سيكون من منتج في المستقبل, فإنما يسَّـــر سبيلَه ربُّه: ﴿ وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾

﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ وهذا إعجاز آخر, أي يتسبب في الفساد, فمع أنكم تصنعونه, لكنه يُفسِد.

ما الذي يحدث الآن عندما تتخرَّب حاملة نفط في البحر؟

ما الذي يحصل عندما تصطدم مركبة بمركبة؟ ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾

خطاب يحتاج إلى تأمل طويل: كيف يكون ما يخلقه ربنا جائرًا؟

نعم, إنه يخلق كل شيء, لكن أنت السبب أيها الإنسان ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾[السناء: 79]

﴿وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لو أنه سبحانه أراد أن يجعلكم كالبهائم, لكان انتزع الاختيار منكم, كما تهتدي النحلة إلى الزهرة المناسبة لها, وتهتدي الشاة إلى النبتة التي تُداوي بها وجعها, لكنه أعطاك الاختيار, وكلّفك وفقًا لهذا الاختيار الذي أعطاك إياه.

﴿وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لكنه أعطاكم الاختيار.

ثم ذكر الفعل الرابع, الذي هو: **تنـــزيل الماء**: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30]

أنزل الماء للشرب, وللزرع, وللشجر, ولطعام الأنعام, ولطعام الإنسان ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ . إنَّ القرآن يهدي الإنسان, لكن الإنسان لا يُحسن التوظيف، فأنقى أنواع المياه هو مـــا ينـــــزل مـــن السماء, ولو أن المياه التي تنـــزل من السماء تُوزَّع على البشر من أجل الشرب, لما عطش إنسان على وجه الأرض.

أنقى أنواع المياه, الماء الذي ينـــزل من السماء, لكننا بسبب تطورنا المادي المفاجئ نعاني من أزمة الكهربـــاء.. ومن أزمة الماء..ونتخبَّط..!!

نعم هكذا هو الإنسان الجاهل, الذي لا يُحسن الاهتداء بخطاب ربّه.

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي ترعون أنعامكم.

﴿يُنبِتُ لَكُم﴾ إن هذا الذي سخَّره لكم ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

ثم ذكر الفعل الخامس, الذي هو: **تسخير الليل وتسخير النهار**. لأن بدن الإنسان يحتاج إلى الليل, ويحتاج إلى النهار, بل إنّ كل ما في الأرض يحتاج إلى الليل والنهار, والتفصيل لا يتسع الوقت لذكره.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

فيُستفاد من ذلك الحساب, ويُستفاد من ذلك ما يُستفاد من التوازن الكوني, أو انضباط التوازن الكوني.

لو أن الإنسان درس المد والجزر الذي يحصل في بدنه, لا في البحر فقط, عندما يتبدّل بُعد القمر عن الإنسان, وقد قرأت بعض الدراسات عن المنافع التي يأخذها الإنسان من المد والجزر وهي لا تُحصى..لكن الإنسان في عالمنا المعاصر ينظر إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء.

الفعل السادس: باختصار وبإجمال **سخَّر ما في الأرض**. حتى لا يأتي مُتفذلِك ليقول: إن القرآن أهمل شيئًا في هذا الخطاب.. فقد اخترعنا المعلوماتية.. واخترعنا أجهزة الكومبيوتر.. واخترعنا الكهرباء.. واخترعنا الطاقة الهيدروجينية.. واخترعنا الطاقة الذرية..

لخَّص القرآن كل ذلك فقال باختصار: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: ما كثَّره. فمعنى ذَرَأَ: كَثَّرَ.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ﴾ انظر كيف يُكرر: لكم, لكم, لكم, حتى نفهم, حتى نعيَ أن الكون كله من حولنا يسير مُسخَّر لنا, ونحن نغفل عن المُسخِّر!

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ وهذه عبارة مختصرة. أي قد اختلف في أصنافه, واختلف في أنواعه, واختلف في أشكاله, واختلف في تصنيفاته. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

ثم ذكر الفعل السابع وهو **خلق البحر وما فيه**:

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ في التجارة, في السفر, وفيما تريدون استثماره في البحر، ومن البحر

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أيقول قائل: لم يذكر البترول في أعماق البحار!

هاهو يُجمل ويقول: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ ابحثوا عن فضله, أينما وجدتموه في السماء أو الأرض, في الحجر أو في الشجر..

ابحث أيها الإنسان عن منافعك, فقد أذنت لك فيها أينما وجدتها, لكن اهتد بالخطاب الرباني, ولا تغفل عنه.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

فهل شكرت دول البترول نعمة, أما أنها استثمرت المال لتتحول إلى بؤرة فساد, لتجد فيها الفواحش, ولتجد فيها غسيل الأموال, ولتجد فيها مالا تجده في البلاد الفقيرة.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فهل شكرتم.

ثم ذكر **نعمة الجبال**: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾

وقد ذكر لي عالِمٌ جيولوجي: أنَّ الكُتل الجبلية التي وضعها الله سبحانه على الأرض وتعالى تمنع اهتـــزاز الأرض, لأن الأرض ليست كروية, بل شكلها يقترب من الكرة, ولولا هذه الكتل عند الدوران لبقي اهتزاز الأرض، فجعل الله سبحانه وتعالى هذه الكتل على الأرض حتى لا تشعر بما يخدش راحتك أيها الإنسان وأنت تعمل أو تســـتريح أو تنام.

﴿وَأَنْهَارًا ﴾ فذكر الفعل التاسع وهو **خلق الأنهار** فكما ذكر الماء الذي ينـــزل من السماء للشراب وللـــزرع، اختصر هنا وقال: ﴿وَأَنْهَارًا ﴾ فابحثوا عن فوائد الأنهار.

ولما كان الله سبحانه ضمِن نقاء ماء السماء ذكر الشراب منه و لم يضمن ماء الأنهار، لأن يد الإنسان تعبث فيه أكثر من عبثها في الهواء، مع أنه الآن يلوث الهواء، وإفساد الإنسان للأنهار أكبر، وكم أفسد من الأنهار، واذهبوا إذا أردتم إلى نهر العاصي في حمص وحماة السوريتين، وانظروا إلى النهر التاريخي قويق في حلب!

ثم ذكر الفعل العاشر الذي هو **تسخير العلامات الجغرافية والفلكية** من أجل أن يميز الإنسان الزمان والمكان، أو ما يعرف بالقدرة على التوجه، وبدلاً من أن تكون الأرض كالأرض التي سنحشر عليها يوم القيامة، التي سماها الله الساهرة، وهي أرض بيضاء بلون واحد لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا، فليس فيها جبل، ولا منعطف، ولا يمكن أن تميز فيها أي جزء عن الجزء الآخر، لكنه سبحانه ميز هذه الأرض: ﴿وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فذكر علامات التوجه في الزمان والمكان.

وأخيرا أعد التنبيهات الخمسة بعد ذكر النعم العشر:

التنبيه الأول:

ألا يجدر بكم أن تتوجهوا إلى من يخلق وأن تعرضوا بقلوبكم عمن لا يخلق: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾

التنبيه الثاني:

ألا يجدر بكم أن تلاحظوا كثرة نعم الله عليكم إلى درجة أنكم لا تستطيعون فيها حصرها: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

التنبيه الثالث:

ألا يجدر بكم أن تلاحظوا أنه تعالى وحده العليم بدقائق ما تخفون وتظهرون: ﴿وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فإن علمتم ذلك استقمتم لأنه الرقيب على أفعالكم. فلو وجدت هذه الرقابة لم تحتاجوا إلى القانون الذي يعاقبكم حتى تستقيموا.

التنبيه الرابع:

ألا يجدر بكم أن تلاحظوا أنَّ غيره هو في حكم الميْت: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: 58]

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ قال صلى الله عليه وسلم: (**أصدق بيت قالته العرب قول لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل**)

التنبيه الخامس:

ألا يجدر بكم أن تعرفوا يقينا أنَّ المعبود بحقٍّ واحد، وأنَّ المادية والاستكبار هما سر الإنكار: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾

وإذا اجتمع في الإنسان المادية والاستكبار فسينكر، وإذا رأيت منكرًا أغمض عينك وقل هو مادي أو مستكبر، أو مادي مستكبر.

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يعني معبودكم بحق ﴿ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾

اللهم لا توجه قلوبنا إلا إليك، وحققنا بالعبودية بين يديك، ومُنَّ علينا بصفاء معرفتك، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أقول هذا القول و أستغفر الله.